

## الشعر وسقوط الدولة الفاطمية

لما فتح جوهر الكاتب أحد قواد المعز لدين الله الفاطمي مصر سنة ٣٥٨ هـ. كتب أماناً للمصريين، ونص على أن يترك للمصريين حريتهم في اختيار العقيدة التي يرضونها لأنفسهم وأن لا يحملهم كرها على تغيير مذهبهم أو دينهم الذى دانوا لله به<sup>(١)</sup>، ولكن الفاطميين لم يحترموا هذا الأمان فقد قامت دولتهم على أساس عقيدتهم المذهبية، فكان من الطبيعي أن يعملوا على صيغ البلاد التي تخضع لحكمهم بهذه الصبغة المذهبية التي تميزوا بها، فلا غرابة أن رأينا دعواتهم ينشطون في كل البلاد، وفي كل المجتمعات يكالبون أصحاب المذاهب الأخرى، ويعقدون مجالس الحكمة التأويلية، ويأخذون العهد على كل مستجيب، واتخذوا الدعوة لمذهبهم وسائل وتدابير مختلفة، فاستجاب كثير من المصريين إلى دعوتهم وعقيدتهم، وظل بعض المصريين طوال الحكم الفاطمي حتى تأثر بها المصريون جميعا، سواء من دخل منهم في الدعوة أو من ظل مستمسكاً بمذهب أهل السنة والجماعة، حتى خيل إلى كثير من الباحثين أن المصريين جميعاً أصبحوا يتمذهبون بعقيدة الفاطميين ويتبعون التقاليد الفاطمية، أى أن مصر قد طبعت بطابع العقائد الفاطمية طوال السنين التي خضعت فيها لحكم الفاطميين.

وبالرغم من أن نفوذ العقائد الفاطمية كان متغلغلاً في مصر فإن هناك عدة عوامل عملت على إضعاف هذه العقيدة في نفوس المصريين، ولعلنا لا نغالي إذا قلنا إن هذا الضعف بدأ في عهد الحاكم بأمر الله «المتوفى حوالى سنة ٤١١ هـ، ولا سيما بعد أن وفد على مصر دعاة تأليه الحاكم أمثال الدرزي وحمزة والأخرم والفرغانى<sup>(٢)</sup>، ونحن نعلم أن المصريين ثاروا على هؤلاء الدعاة، وقتلوا الأخرم سنة ٤٠٨ هـ، وأن الدرزي وحمزة هربا، وأن الحاكم انتقم من المصريين فحرق الفسطاط وقتل عدداً كبيراً من المصريين. وكانت خاتمة حياة الحاكم نهاية لهذه الدعوة الإلحادية الجريئة في مصر، ولكن كان من نتائجها أن بدأ الناس يشكون فى عقيدة الفاطميين وفى كل ما قاله الدعاة عن الإمامة والأئمة، وظهرت هذه النتيجة بشكل لافت فى عهد المستنصر بالله (٤٢٧ هـ - ٤٨٧ هـ) ولا سيما فى تلك السنوات

(١) المقرئى: اتعاض الحنفاء ص ١٤٨ - ١٥٣ «طبع دار الفكر العربى».

(٢) راجع الرسالة الواعظة لأحمد حميد الدين الكرمانى نشر محمد كامل حسين «بمجلة كلية الآداب عدد

مايو سنة ١٩٥٢م».

من حكمه التي ضعفت فيها الحياة الاقتصادية وبلغت درجة من الانحطاط جعلت الناس لا يراعون للإمامة حرمة ولا للعقيدة وزناً، فضعفت ثقة المصريين فى عقيدة الإمام المعصوم! وأنه الوساطة بين الله والخلق، وفى عقيدة النص على ولاية العهد، وهى العقيدة التى كانت أساس مذهب الإسماعيلية وسبباً فى انقسام الشيعة الإمامية إلى إسماعيلية وموسوية فتهاون المصريون بهذه العقيدة، مما سهل الأمر للأفضل بن بدر الجمالى فى تحويل الإمامة بعد المستنصر إلى المستعلى وحرّم منها صاحب النص نزار بن المستنصر؛ فانقسمت الدعوة إلى فرعين رئيسيين، هما: الإسماعيلية النزارية التى عرفت بالإسماعيلية الشرقية أحياناً وبالإسماعيلية الحشيشية أحياناً أخرى ويعرفون الآن بالخوجة أو الأغاخانية، وإمامهم الآن هو أغاخان الرابع «كريم بن على بن محمد الحسينى»، والفرع الآخر هو الإسماعيلية المستعلية أو الإسماعيلية الغربية وهى التى ظلت فى مصر واليمن.

فكان هذا الانفصال من عوامل ضعف العقيدة وزعزعتها من نفوس المصريين. أضف إلى ذلك أنه لما قتل الأمر بأحكام الله سنة ٥٢٤ هـ. ولم يكن له ولد، ذهب الصليحيون أصحاب الدعوة فى اليمن إلى أن الأمر لما قتل، كانت إحدى جهاته حاملاً، وأنها أنجبت ولدًا له هو الطيب بن الأمر، وأن الإمامة للطيب هذا، وأنه دخل الستر وجعل الملكة الحرة الصليحية حجته وصاحبة الستر عليه فوجد بذلك فرع جديد للإسماعيلية؛ وعرفت هذه الدعوة بالدعوة الطيبية ولا تزال تعرف بهذا الاسم إلى اليوم. وأتباع هذه الدعوة يعرفون الآن بالبهرة، وداعيهم المطلق هو ظاهر سيف الدين، وإمامهم من نسل الطيب بن الأمر لا يزال فى دور للستر، أما فى مصر فلم يعترف المصريون بشيء اسمه الطيب بن الأمر، وأقيم عبد المجيد بن محمد بن المستنصر المعروف بالحافظ لدين الله كفيلاً للإمام المنتظر فى أول الأمر، ثم اعترف بإمامته بعد ذلك، فكان الاعتراف بإمامته خارجاً عن أسس الإمامة عند الإسماعيلية؛ إذ الإمامة عندهم لا تكون إلا فى الأعقاب<sup>(١)</sup>، وأن الإمام ينص على حجته وولى عهده من أبنائه، ولا تنتقل الإمامة من أخ إلى أخ بل لابد أن تكون من أب إلى ابن والحافظ لم يكن ابناً لإمام، فليس له حق فى الإمامة ومع ذلك اعترف به المصريون إماماً تهاوناً منهم بالعقيدة الإسماعيلية، مما أدى إلى زيادة استخفافهم بالفاطميين وعقائدهم، وإلى تزعزعها من نفوس كثير ممن استجابوا لها من المصريين، وبلغ التهاون حدًا بعيداً

(١) المجالس المؤيدية ج ١ ص ٥ (نسخة خطية بمكتبتى) والمجالس والمسائرات ورقة ٧٩ ونسخة

خطية بمكتبتى.

حين نرى الوزير الفاطمي أبا الحسن بن السلار - المنعوت بالملك العادل سيف الدين الذى تولى الوزارة سنة ٥٤٤ هـ - يتظاهر بالتسنن على مذهب الشافعية، ولما وصل الحافظ أبو طاهر السلفى إلى الإسكندرية واتخذها دار مقامه احتفل به العادل بن السلار وعمر له هناك مدرسة فوض تدريبها إليه، ولم يكن للشافعيين بالإسكندرية سواها<sup>(١)</sup> وهو عمل لا يقدم عليه الوزير إلا إذا كان على ثقة تامة أن أتباع العقيدة الفاطمية لا يستطيعون مقاومتها، وذلك لضعفهم ولتزعزع العقيدة من نفوس أكثر المصريين، وهناك قصة عمارة اليمنى مع سيف الدين الحسين بن أبى الهيجاء صهر الملك الصالح طلائع بن رزيك، وهى إن دلت على شىء، فإنما تدل على أن الشك فى العقيدة الفاطمية دب فى نفس سيف الدين<sup>(٢)</sup>، وقصة أخرى ذكرها عمارة أيضاً ترينا كيف كان الداعى ابن عبد القوى والوزير شاور وابنه الكامل يفكرون فى تسيير الدعوة لولدى صاحب عدن ونقل مركز الدعوة إلى عدن، فاستشاروا عمارة فى ذلك فقال: (إن أهل اليمن إنما يبعثون لكم الهدايا والتحف والنجاوى ويتولونكم لأجل الدعوة فإذا تبرعتم بها فقد هونتم حرمتها)<sup>(٣)</sup>. فهذه كلها أدلة نسوقها على ما نذهب إليه عن مدى ضعف العقيدة فى نفوس أكثر المصريين فى أواخر أيام الفاطميين حتى نفوس بعض الدعاة وكبار رجال الدعوة.

ومع هذا الضعف الذى حل بمذهب الفاطميين فى مصر، فقد كان مظهر التشيع واضحاً بين بعض المصريين، وليس على ذلك من تلك الصورة القوية التى رسمها القاضى الفاضل فى إحدى رسائله يصور فيها مدى تظاهر المصريين بالتشيع وبالتقاليد الفاطمية فقد قال: (إن كلمة السنة بها وإن كانت مجموعة فإنها مقموعة، وأحكام الشريعة وإن كانت مسماة، فإنها متحامة، وتلك البدع بها على ما يعلم، وتلك الضلالات فيها على ما يفتى فيه بفراق الإسلام ويحكم، وذلك المذهب قد خالط من أهله اللحم والدم، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهة تعبد من دون الله تعظم وتفخم، فتعالى الله عن شبه العباد، وويل لمن غره الذين كفروا فى البلاد... ووصلنا البلاد وبها أجناد عددهم كثير وسوادهم كبير وأموالهم واسعة، وكلمتهم جامعة، وهم على حرب الإسلام أقدر منهم على حرب الكفر، والحيلة فى السر فيهم أنفذ من العزيمة فى الجهر، وبها رجال من السودان يزيدون على مائة ألف، كلهم

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٧٠ (طبع المطبعة اليمينية).

(٢) عمارة اليمنى: النكت المصرية ص ١٢٦ (طبع سالون).

(٣) نفس المرجع السابق ص ٩٢.

أغنام أعجام، إن هم إلا كالأغنام لا يعرفون ربًّا إلا ساكن قصره. ولا قبلة إلا ما يتوجهون إليه من ركنه وامثال أمره، وبها عسكر من الأرمن باقون على النصرانية موضوعة عنهم الجزية، كانت لهم شوكة وشكة وحمية وحمية، ولهم حواش لقصورهم من بين داع تتلطف في الضلال مداخلة وتصيب القلوب مخاتله، ومن بين كتاب تفعل أفعالهم أفعال الأسل، وخدام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النحل، ودولة قد كبر نملها الصغير ولم يعرف فيها غير الكبير؛ ومهابة تمنع ما يكنه الضمير، فكيف بخطوات التدبير، هذا إلى استباحة للمحارم ظاهرة، وتمطيل للفرائض على عادة جارية جائرة، وتحريف للشريعة بالتأويل، وعدول إلى غير مراد الله بالتنزيل، وكفر سمي بغير اسمه. وشرع يتستر به ويحكم بغير حكمه، فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشفار، وَتَحَيَّفُهُمْ تَحَيَّفَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ. بعجائب تدبير لا تحتملها المساطير، وغرائب تقدير لا تحملها الأساطير، ولطيف توصل ما كان من صلة البشر ولا قدرتهم لولا إعانة المقادير<sup>(١)</sup>.

هذه صورة لحالة الدعوة الفاطمية في مصر حين قام صلاح الدين الأيوبي بمحوها من البلاد، رسم هذه الصورة رجل عاش في بلاط الفاطميين في أواخر أيامهم، فقد كان كاتبًا من كتابهم مُطِيعًا على أسرارهم ثم انقلب عليهم، واستوزر لصلاح الدين وكان عضده الأيمن في القضاء على الفاطميين، ولسنا في مجال الحديث عن القاضي الفاضل، وإنما الذي يهمنا في وصفه أن العقيدة الإسماعيلية قد خالطت من المصريين اللحم والدم، وأنه دبر تدابير مختلفة للقضاء على الفاطميين وكان نجاحه من المقادير، والذي يقرأ هذه الرسالة للقاضي الفاضل يروعه وصف القاضي لتغلغل العقيدة الفاطمية في المصريين، بينما نذهب نحن إلى أن العقيدة ضعفت عند المصريين؛ فالقاضي الفاضل قد وصف القصر والحاشية من كبار رجال الدولة من دعاة وكتاب، وهؤلاء بحكم صلتهم بالإمام الفاطمي كانوا على نحو ما ذكره القاضي الفاضل، ثم إن القاضي الفاضل قد بالغ في تصويره هذا ليضفي على ما قام به صلاح الدين الأيوبي من تقويض أركان الدولة الفاطمية قيمة وخطرا، ولم يتحدث القاضي الفاضل عن الشعب نفسه؛ فالشعب المصري كان موزع الهوى بين هذه التقاليد الفاطمية التي ورثها عن قرنين من الزمان، وبين ما طرأ على هذه العقيدة الفاطمية من ضعف، لهذا تحول عدد من شيعة مصر إلى مذهب أهل السنة والجماعة وبقي عدد آخر على تشييعه وتأثره بالفاطميين، ولا سبيل لصلاح الدين الأيوبي ولا لغير صلاح الدين

(١) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ٢٤١.

إلى انتزاع عقيدة من العقائد بحد السيف أو بالتدابير التي أشار إليها القاضي الفاضل في رسالته السابقة. فليس من السهل اليسير أن يقتلع دين من الأديان بمجرد تغيير النظام السياسي في بلد من البلاد، إنما يحتاج التغيير إلى سنوات عديدة وإلى تدابير ليست هي من تدابير القوة والبأس والبطش فحسب، وإذا نظرنا إلى الذين استجابوا لصالح الدين وناصروه فسنجد أن جلهم بين هؤلاء الذين لم يعتنقوا المذهب الإسماعيلي ولم يتحولوا عن عقيدتهم، عقيدة أهل السنة والجماعة، وثبتوا أمام دعاة الإسماعيلية وسلطان أمتهم، وبين هؤلاء الذين استجابوا إلى مذهب الإسماعيلية، ولكن ضعفت عقيدتهم من نفوسهم لما رأوا أن القائمين على هذه العقيدة انحرفوا عنها، ولم يعملوا بأصولها ولا بفروعها، فتحول هؤلاء عن إسماعيليتهم وهم مطمئنون بعد أن دب الشك في نفوسهم، وفريق ثالث من الذين ساعدوا صلاح الدين في قطع الخطبة للفاطميين وتحويلها إلى العباسيين هم هؤلاء الذين يعرفون بأنهم يأكلون على كل الموائد ولا يعملون إلا لأنفسهم ويحاولون الإفادة من كل تغيير، فهم أتباع كل جديد لا لشيء سوى الإفادة من النظم الجديدة؛ فكثير من رجال الدولة الفاطمية أصبحوا من أعدائها في عصر الأيوبيين، ومن هؤلاء القاضي الفاضل نفسه، والقاضي ابن سناء الملك، والقاضي ابن الزبير، وابنا القاضي الجليس ابن الحباب وغيرهم. أما الشعب - ولاسيما طبقة الجهال - فقد ظلوا على إسماعيليتهم. ويكفي أن أثبت هنا إحدى مقطوعات القاضي الفاضل في مدح أحد خلفاء الفاطميين وأخرى في مدح صلاح الدين لنتبين كيف أصبح القاضي الفاضل بين عشية وضحاها عدواً لتلك الدولة التي أكرمته ورفعته والتي أشاد بها هو أيام حكمهم، فلما دالت دولتهم انقلب عليهم. فهو يقول في قصيدته التي مطلعها: (تزهو بدولتك الدنيا وتفتخر) يمدح الخليفة الفاطمي:

لنا فإنك تعطينا وتعتذر  
فتستعير سناء حين تستعر  
مرامها وعراً أو فعلها عسر  
في كل داجية من نوره قمر  
عيني بطلعته فاستصغر الخبر  
فقلت هيئات أن يحظى بذا بشر  
إن قصر السمع عما ناله النظر  
في كل كف له من أملٍ أثر

وإن أساءت بنا الدنيا وما اعتذرت  
أما الكواكب والأنوار شاهدة  
وجهٌ نديٌّ بشره مفتاح كل منى  
لكل ظامئة من دمائه رمق  
مستعظم الخبر المسموع إذ ظفرت  
قد كان يبلغ سمعي في مكارمه  
فالحمد لله حمداً غير مقتصر  
في كل سمع له من شاكر خير

وكيف أحتار أن أحظى بزورته  
مكارم لا ينال الحصر غايتها  
هذى الموارد والآمال واردة  
مواردُ ببرق البشر قد مزجت  
ألقت على مائها أنوار غرته

فاليوم قد جمعت لى عنده الخير  
فلا عجيب إذا ما نالنى الحصر  
فلينسك الصفو منها ما جنى الكدر  
كذلك السحب فيها البرق والمطر  
يا حسن ما خفى الإحسان والخفر<sup>(١)</sup>

ثم نراه يمدح الملك الناصر صلاح الدين بعدة قصائد إن دلت على شىء فإنما تدل على  
غلو في المديح وإسباغ الصفات على نحو ما كان يفعله مع الخلفاء الفاطميين. فانظر إليه  
وهو يقول فى إحدى قصائده فى الناصر صلاح الدين :

لأمرك أمر الله بالنجح عاضد  
وقل ما اقتضت عليك فالعز قائم  
ونم وادعا فالمجد يقظان حارس  
فما تبرم الأيام والله ساقض  
وقد برزت بكر المكارم والعللا  
فخفت بها الأملاك وهى مواهب  
وزفت لها النعماء وهى مصادر  
فنترها الإحسان وهى لآلى  
فلازلت محروس العلا يا ابن صاعد  
تسر بك الدنيا وبيتهج الورى

فَصُلْ أَمْرًا فَالدهر سيف وساعد  
بأمرك والمجد المؤئل قاعد  
لمجدك والعداى لبأسك راقد  
ولا تنقض الأيام والله عاقد  
وفى جيدها من راحتيك قلائد  
وسارت بها الركبان وهى محامد  
رفعنا لها الأمداح وهى موارد  
ونظمها الإفضال وهى فرائد  
وجدك فى أفق السيادة صاعد  
وتستوى كف النعمى وتحوى المقاصد<sup>(٢)</sup>

ومهما يكن من شىء فإن شعراء مصر والشام أكثروا من مدح صلاح الدين بمجرد  
إعلان قطع الخطبة عن الفاطميين ولاسيما هؤلاء الشعراء الذين أحاطوا بصلاح الدين  
وعدوا من شعرائه. فمن ذلك ما قاله العماد الأصفهاني :

قد خطبنا للمستضى بمصر  
وخذلنا لنصرة العضد العا

نائب المصطفى إمام العصر  
ضد والقاصر الذى بالقصر<sup>(٣)</sup>

(١) ديوان القاضى الفاضل (نسخة خطية بدار الكتب المصرية).

(٢) نفسه.

(٣) أراد بالعضد وزير بغداد عضد الدين بن رئيس الرؤساء. قال العماد فى كتاب الخريدة قصدت بالعضد  
والعاقد المجالسة ونصرة وزير الخليفة كنصرته.

وأشعنا بها شعار بنى العبد  
وتركنا الدعى يدعو ثبورا  
وتباهت منابر الدين بالخط  
ولدينا تضاعفت نعم الل  
فاغتنى الدين ثابت الركن فى مص  
واستنارت عزائم الملك العا  
وبنو الأصفر القوامص منه  
عرف الحق أهل مصر وكانوا  
قل لداعى الدعى حسبك فالل  
هو فتح بكر ودون البرايا  
وحصلنا بالحمد والأجر والنص  
ونشرنا أعلامنا السود قهرا  
واستعدنا من أذعياء حقوقا  
والذى يدعى الإمامة بالقاهر  
خانه الدهر فى مناه ولا يطم  
ما يقام الإمام إلا بحق  
خلفاء الهدى سراة بنى العبد  
بهم الدين ظافر مستقيم  
كشموس الضحى كمثل بدور ال  
قد بلغنا بالصبر كل مراد  
ليس مثرى الرجال من ملك الما  
ولهذا لم ينتفع صاحب القص  
دام نصر الهدى بملك بنى العبا  
ولما توفى الخليفة العاضد الفاطمى  
العماد الأصفهانى :

اس فاستبشرت وجوه النصر  
وهو بالذل تحت حجر وحصر  
بسة للهاشمى فى أرض مصر  
به وجلت عن كل عد وحصر  
مر محوط الحمى مصون الثغر  
دل نور الدين الكريم الأغر  
بوجوه من المخافة صفر  
قبله بين منكر ومقر  
به أقر الحقوق خير مقر  
خصنا الله بافتراع البكر  
مر وطيب الثنا وحسن الذكر  
للعدى الزرق بالمنايا الحمر  
يدعى بينهم لزيد وعمرو  
ة انحط فى حضيض القهر  
ع نو اللب فى وفاء الدهر  
ما تحاز الحسناء إلا بمهر  
اس والطيبون أهل الطهر  
ظاهر قوة قوى الظهر  
تم كالسحب كالنجوم الزهر  
وبلوغ المراد عقبى الصبر  
ل ولكنما أخو اللب مثرى  
مر وقد شارف الدثور بدثر  
س حتى يقوم يوم الحشر<sup>(١)</sup>  
فى ليلة عاشوراء سنة ٥٦٧ هـ قال

يفتح ذو بدعة بمصر فما

توفى العاضد الدعى فما

(١) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ١٩٨ - ١٩٩.

وعصر فرعونها انقضى وغدا وانطفأت جمرة الغواية وقد وصار شمل الصلاح ملتئما لما غدا معلنا شعار بنى الـ وبات داعى التوحيد منتصرا وظل أهل الضلال فى ظلل وارتبك الجاهلون فى ظلم وعاد بالمستضى ممتهدا واعتلت الدولة التى اضطهدت واهتز عطف الإسلام من جذل واستبشرت أوجه الهدى فرحا عاد حريم الأعداء منتهك الـ قصور أهل القصور أخرجها أزعج بعد السكون ساكنها وقال بعض الشعراء فى مدح الأيوبيين معرضاً بالفاطميين :

يوسفها فى الأمور محتكما باخ من الشرك كل ما اضطر ما بها وعقد السداد منتظما عباس حقا والباطل اكتتما ومن دعاة الإشراف منتقما داجية من غيابة وعمى لما أضاءت منابر العلمما بناء حق قد كان منهدهما وانتصر الدين بعدما اهتضما وافتر ثغر الإيمان وابتسما فليقرع الكفر سننه ندما حمى وفى الطغاة مقتسما عامر بيت من الكمال سما ومات ذلاً وأنفه رغبما<sup>(١)</sup>

ألستم مزلى دولة الكفر من بنى زنادقة شيعية باطنية يُسرون كفرا يظهرون تشيعا ويقول عرقلة فى استيلاء صلاح الدين على

عبيد بمصر إن هذا هو الفضل مجوس وما فى الصالحين لهم أصل ليستتروا شيئاً وعمهم الجهل<sup>(٢)</sup> مصر وخلع الخطبة الفاطمية :

أصبح الملك بعد آل على وغدا الشرق يحسد الغرب للقبو ما حووها إلا بحزم وعزم لا كفرعون والعزيز ومن كا

مشرقاً بالملوك من آل شاذى م ومصر تزهو على بغداد وصليل الفولاذ فى الفولاذ ن بها كالخصيب والأستاذ<sup>(٣)</sup>

(١) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ١٩٥.

(٢) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٢٠٢.

(٣) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٢٠٠.

انقسم المصريون بين مؤيد لصلاح الدين وحركته فى إبادة التشيع من مصر، وبين مستمسك بتشييعه يندب أيام الفاطميين ويبكى على أئمتة، وقد حاول هؤلاء مرارا أن يعيدوا الخلافة الفاطمية، فكان يظهر من حين لآخر من كان يدعو فى البلاد إلى الفاطميين فيلتف الناس حوله وتخف جنود الأيوبيين للقضاء على حركته. فمن ذلك ما كان فى سنة ٥٦٩ هـ إذ قام بعض رجال الدولة الفاطمية برياسة هبة الله بن كامل قاضى القضاة وداعى الدعاة بحركة لإعادة ملك الفاطميين فى مصر، وأسهم فى هذه الحركة عمارة اليمنى بالرغم من تسننه، والداعى عبد الجبار بن اسماعيل بن عبد القوى وغيرهما وامتدت هذه الثورة إلى حد أنهم كاتبوا الصليبيين وشيخ الجبل «راشد الدين سنان» زعيم الإسماعيلية النزارية فى الشام، ولكن هذه الحركة فشلت وقبض على رؤسائها وقتلوا صلبا.

ومن الغريب أن عمارة اليمنى كان ممن مدح صلاح الدين الأيوبي أيام وزارته. ومدح أباه نجم الدين. ويظهر فى مدائحه فضل صلاح الدين فى إعادة مجد الإسلام ووحدة المسلمين، كما مدح توران شاه أخا صلاح الدين وحيد إليه فتح اليمن. فمما قاله فى مدح صلاح الدين عندما غزا غزة سنة ٥٦٦ هـ أى قبل انقراض الدولة الفاطمية بعدة أشهر:

غزوا عقر دار المشركين بغزة  
 وزاروا مصلى عسقلان بأرعن  
 وكانت على ما شاهد الناس قبلهم  
 وما عصمتهم منك إلا معاقل  
 جلبت لهم من سورة الحرب ما التقى  
 وأخربت من أعمالهم كل عامر  
 أضفت إلى أجر الجهاد زيارة ال  
 وهيجت للبيت المقدس لوعة  
 تنشق من ملقاك أعظم نفحة  
 وغزوك هذا سلم نحو فتحه  
 هو البيت إن تفتحه والله فاعل

جهارا وطرف الشرك خزبان مطرق  
 يفيض إناء البر منه ويفهق  
 طرائق من شوك القنا ليس تطرق  
 تأنوا على تحصينها وتأنقوا  
 بوادره سور عليهم وخندق  
 يمر به طيف الخيال فيغرق  
 خليل فأبشر أنت غاز موفق  
 يطول بها منه إليك التشوق  
 تطيب على قلب الهدى حين تنشق  
 قريبا وإلا رائد ومطرق  
 فما بعده باب من الشام مغلق<sup>(١)</sup>

(١) أبو شامة: الروضتين. ج ١ ص ١٩٣.

كما قال في مدح نجم الدين :

ووجهه بدوام العز متسم  
كأنما حل فيه الحل والحرم  
فقارعوا عنه فهو اليوم منتظم  
أن الحظوظ بلثم الأرض تقتسم  
كأن يقظتنا في عصرهم حلم  
إذا الحوادث لم يكشف لها غم  
فلم يلم بنا خوف ولا عدم  
تنحط عن قدره الأقدار والهمم<sup>(١)</sup>

ثغر الزمان بنجم الدين مبتسم  
أضحى بك النيل محجوجاً ومعتماً  
جاءت بنوك وشمل الدين منتثر  
وما درى أحد من قبل رؤيتهم  
نامت عيون الورى في عدل سيرتهم  
والناصر ابنك كافٍ كل معضلة  
أعز بالبأس والإحسان حوذتنا  
تبسم الدست من أيوب عن ملك

ولما توفي نجم الدين رثاه عمارة بعدة قصائد

وحادث الموت لا يبقى ولا يذر  
لو أثرت عندنا الآيات والنذر  
فما مع الموت لا غشى ولا كدر  
لم ينج من سكرها أنثى ولا ذكر  
ما أضعف القدر إن ألوى به القدر  
شعواء يقطر منها الناب والظفر  
ولم يفتها أبو بكر ولا عمر  
فللورى برسول الله معتبر  
والنجم من أفقه يهوى وينكدر  
له وعقد الثريا منه منتثر  
نعماه في كل عيش صالح أثر  
حزنا به يتساوى الصبر والصبر  
ذكر يعبر عنه الصارم الذكر  
مسكا فعترة أيوب هي العطر

صفو الحياة وإن طال المدى كدر  
وما يزال لسان الدهر يندرنا  
فلا تقل عزت الدنيا مطامعنا  
كأس إذا ما الردى حيا الحياة بها  
كم شامخ العز لاقى الذل من يدها  
في كل جيل وعصر من وقائعها  
أودى على وعثمان بمخلبها  
ومن أراد التأسى في مصيبتة  
نجم هوى من سماء الدين منكدر  
منظومة أبحر الجوزاء من جزع  
وكيف ينسى محياه الكريم ومن  
جددت من أمد الدين الشهيد لنا  
قد كان للدين والدنيا بعزمكما  
إن فاح نشر كلام تمدحان به

(١) نفس المصدر ص ٢١١.

تخفى ذبال مصابيح إذا طلبوا  
كأنما صور الله الكمال بهم  
لاشوبك منه معصوم ولا كرك  
لم يرتحل قافلاً إلا وساكنها  
ما مات أيوب إلا بعد معجزة  
مضى سعيداً من الدنيا وليس له  
وطوّ الله منه باع أربعة  
وأشرف الملك ما امتدت مسافته  
ومن سعاده إن مات لا سأم

صبحاً وتنسى ملوك الأرض إن ذكروا  
شخصاً ويوسف منه السمع والبصر  
ولا خليل ولا قدس ولا زغر  
إما مباح حماه أو دم هدر  
فى المجد لم يؤتها من جنسه بشر  
فى رتبة أرب باق ولا وطر  
منها الندى والتقى والملك والعمر  
فى صحة أخواها العقل والبكر  
يشكوه منه معانيه ولا ضجر<sup>(١)</sup>

ومع ذلك كله، فقد تآمر عمارة على صلاح الدين، وكاتب المتآمرين أعداء الدين من الصليبيين فى فلسطين، والنورمانيين فى صقلية لغزو مصر، فلما صلب هو وأصحابه، أنشد شعراء مصر فى ذلك. فالشاعر تاج الدين الكندى يقول:

عمارة فى الإسلام أبدى جناية  
وأسمى شريك الشرك فى بغض أحمد  
وكان خبيث الملتقى إن عجمته  
سيلقى غدا ما كان يسعى لأجله  
وبايع فيها بيعة وصليبا  
فأصبح فى حب الصليب صليبا  
تجد منه عوداً فى النفاق صليبا  
ويسقى صديدا فى لظى وصليبا<sup>(٢)</sup>

يقصد بالصليب الأول النصارى، والثانى بمعنى مصلوب والثالث من الصلاة والرابع ودك العظام، وقيل هو الصديد أى يسقى ما يسيل من أهل النار.

وفى هذه المؤامرة كتب القاضى الفاضل رسالة شرح فيها قضية من صلب جاء فيها: «قصر هذه الخدمة على متجدد سار للإسلام وأهله، وبشارة مؤذنة بظهور وعد الله فى إظهاره على الدين كله، بعد أن كانت لها مقدمات عظيمة إلا أنها أسفرت عن النجاح، وأوائل كالليلة البهيمية إلا أنها انفرجت عن الصبح، فالإسلام ببركاته البادية، وفتكاته الماضية، قد عاد مستوطناً بعد أن كان غريباً، وضرب فى البلاد بجرانه بعد أن كان كالكفر يتم عليه تخيلاً عجيباً، إلا أن الله سبحانه أطلع على أمرها من أوله وأظهر على سرها

(١) أبو شامة: الروضتين: ج ١ ص ٢١٢.

(٢) نفس المصدر ج ١ ص ٢٢٢.

من مستقبله ، والملوك يأخذ في ذكر الخير ويعرض عن ذكر الأثر ، لم يزل يتوسم من جند مصر ومن أهل القصر بعد ما أزال الله من بدعتهم ، ونقض من عرى دولتهم ، وخفض من مرفوع كلمتهم ، أنهم أعداء وإن تعدت بهم الأيام . وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الإسلام ، وكان لا يحتقر منهم حقيرا ، ولا يستبعد منهم شرا كبيرا . وعيونه لمقادهم موكلة وخطراته في التحرز منهم مستعملة ، لا تخلو سنة تمر ولا شهرا يكر ، من مكر يجتمعون عليه وفساد يتسرعون إليه ، وحيلة يبرمونها ومكيدة يتمونها ، وكان أكثر ما يتعللون به ويستريحون إليه المكاتبات المتواترة والمراسلات المتقاطرة إلى الفرنج ، خذلهم الله ، التي يوسعون لهم فيها سبيل المطامع ، ويحملونهم فيها على العظام والفظائع ، ويزينون لهم الإقدام والقدوم ، ويخلعون فيها ربة الإسلام خلع المرتد المخصوم ، ويد الفرنج بحمد الله قصيرة عن إجابتهم ، إلا أنهم لا يقطعون حبل طمعهم على عاداتهم ، وكان ملك الفرنج كلما سولت له نفسه الاستتار في مراسلتهم والتحيل في مفاوضتهم سير «جرج» كاتبه رسولا إلينا ظاهرا وإليهم باطنا عارضا علينا الجميل الذي ما قبلته قط أنفسنا ، وعاقدا معهم القبيح الذي يشتمل عليه في وقته علمنا . ولأهل القصر والمصريين في أثناء هذه المدد رسل تتردد ، وكتب إلى الفرنج تجدد» ثم قال : «والمولي عالم إن عادة أوليائه الاستفادة من أدبه ألا يبسطوا عقابا مؤلما ، ولا يعذبوا عذابا محكما ، وإذا طال لهم الاعتقال ولم ينجع السؤال أطلق سراحهم وخلقى سبيلهم ، فلا يزيدهم العفو إلا ضراوة ، ولا الرقة عليهم إلا قساوة ، وعند وصول جرج في هذه الدفعة الأخيرة رسولا إلينا بزعمه ورد إلينا كتاب ممن لا نرتاب به من قومه يذكرون أنه رسول مخالطة لا رسول مجاملة ، وحامل بليّة لا حامل هدية ، فأوهمناه الإغفال عن التيقظ لكل ما يصدر منه وإليه فتوصل مرة بالخروج ليلا ومرة بالركوب إلى الكنيسة ، وغيرها نهارا إلى الاجتماع بحاشية القصر وخدامه وبأمراد المصريين وأسبابهم وجماعة من النصارى واليهود وكلابهم وكتابهم ، فدسنا إليهم من طائفتهم من داخلهم فصار ينقل إلينا أخبارهم ويرفع إلينا أحوالهم ، ولما تكاثرت الأقوال وكاد يشتهر علمنا بهذه الأحوال ، استخرنا الله تعالى وقبضنا على جماعة مفسدة ، وطائفة من هذا الجنس متمردة ، قد اشتملت على الاعتقادات المارقة ، والسرائر المناقفة ، فكلا أخذ الله بذنبه ، فمنهم من أقر طائعا عند إحضاره ، ومنهم من أقر بعد ضربه فانكشفت أمور أخرى كانت مكتومة ، ونوب غير التي كانت عندنا معلومة ، وتقريرات مختلفة في المراد متفقة في الفساد» .

ثم ذكر تفصيلا حاصله: أنهم عينوا خليفة ووزيرا مختلفين في ذلك فمنهم من طلب إقامة رجل كبير السن، من بنى عم العاضد، ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد وإن كان صغيرا، واختلف هؤلاء في تعيين واحد من ولدين له، وأما بنو رزيك وأهل شاور، فكل منهم أراد الوزارة لبيتهم من غير أن يكون لهم غرض في تعيين الخليفة، ثم قال: وكانوا فيما تقدم، والملوك على الكرك والشوبك بالعسكر قد كاتبوهم، وقالوا لهم: إنه بعيد والفرصة قد أمكنت، فإذا وصل الملك الفرنجى إلى صدر أو أيلة ثارت حاشية القصر وكافة الجند وطائفة السودان وجموع الأرمين وكافة الإسماعيلية، وفتكت بأهلنا وأصحابنا فى القاهرة، ثم قال: ولما وصل جرج كتبوا إلى الملك الفرنجى أن العساكر متباعدة فى نواحي إقطاعاتهم، وعلى قرب من موسم غلاتهم، وأنه لم يبق فى القاهرة إلا بعضهم، وإذا بعثت أسطولا إلى بعض الثغور أنهض فلانا من عنده وبقي فى البلد وحده، ففعلنا ما تقدم ذكره من الثورة، ثم قال: وفى أثناء هذه المدة كاتبوا سنانا صاحب الحشيشية، بأن الدعوة واحدة، والكلمة جامعة، وأن لا بين أهلها خلاف إلا فيما لا يفترق به كلمة، ولا يجب به قعود عن نصره، واستدعوا منه من يتم على الملوك غيلة، أو يببى له مكيدة وحيلة، والله من ورائهم محيط، وكان الرسول إليهم عن المصريين خال بن قرجلة المقيم الآن هو وابن أخته عند الفرنج، ولما صحَّ الخبر وكان حكم الله أولى ما أخذ به، وأدب الله أمضى فيمن خرج عن أدبه، وتناصرت من أهل العلم الفتاوى، وتوالت من أهل المشورة بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوى، قتل الله بسيف الشرع المطهر جامعة من الغواة الغلاة الدعاة إلى النار، الحاملين لأثقالمهم وأثقال من أضلوه من الفجار، وشنقوا على أبواب قصورهم، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم، ووقع المتتبع لأتباعهم، وشردت طائفة الإسماعيلية ونفوا، ونودى بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر وراجل السودان إلى أقصى بلاد الصعيد، فأما من جهة القصر فقد وقعت الحوطة عليهم إلى أن ينكشف وجه رأى يمضى فيهم، ولا رأى فوق رأى المولى، والله سبحانه المستخار وهو المستشار، وعنده من أهل العلم من تطيب النفس بتقليده وتمضى الحدود بتحديدده، ورأى الملوك إخراجهم من القصر، فإنهم مهما بقوا فيه بقيت مادة لا تتحشم الأطماع عنها فإنه حباله للضلال منصوبة وبيعة للبدع محجوبة... إلخ<sup>(١)</sup>.

(١) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ٣٣١.

ولعل ثورة كنز الدولة بن المتوج كانت من أكبر الثورات وأشدّها ضد صلاح الدين، فقد كان كنز الدولة أميراً لأسوان، وكان مقصد الشعراء لجوده وشجاعته.. مدحه عدد كبير من شعراء مصر، نذكر منهم الشاعر محمد بن علي بن الغمر المتوفى سنة ٥٧٤ هـ. فمن قوله فيه :

أراعك في جنح من الليل طارق  
وكالنيل هذا الودق يروى أباطحا  
ستبقى على الأيام منى مآثر  
إذا جال فرسان العلوم فإننى  
وسائلة بهرام كيف لقاءه  
رآك وقد طارت شعاعاً قلوبهن  
فياً من حوى عصر الشبيبة أشيبا  
وجاز وفاء الشيب وهو مراهق<sup>(١)</sup>

ومدحه الشاعر محمد بن رائق المكين أبو عبد الله الأسوانى فمن قوله :

بالسّفح من ربع سلمى منزل دثرا  
واستوقف الركب واستسقى الغمام له  
واستخبر الدار عن سلمى وجيرتها  
وكيف تسأل داراً لم تدع جلدًا  
فاسفح دموعك فى ساحاته دررا  
والثّم صعيدا تراه الأنظر العطرا  
إن كانت الدار تعطى سائلا خبرا  
لسائليها ولا سمعا ولا بصرا<sup>(٢)</sup>

ومدحه أبو محمد الحسن بن الزبير فمن قوله فيه :

وينجده إن خانة الدهر أوسطا  
أجاروا فما تحت الكواكب خائف  
ويقال إن كنز الدولة أجازة على تلك القصيدة بما يساوى ألف دينار ووقف عليه ساقية  
تساوى ألف دينار<sup>(٣)</sup>..

(١) الإدقوى: الطالع السعيد ص ٣٠٩.

(٢) الإدقوى: الطالع السعيد ص ٢٨٨.

(٣) المقرئى: ج ١ ص ٣٢١.

ومما قاله الشاعر محمد بن أحمد الأسواني في مدح كنز الدولة:

هل المجد إلا ما اقتنته الصوارم  
أو العز إلا ما أشاد مناره  
أو الفخر إلا المتوج لابس  
إذا أخلفت سحب فغيث مساجم  
وكفت فينا يد وكفت ردى  
ويعصى بفضل والحلوم سفيهة  
ونذكر أيضا من شعرائه أحمد بن محمد الروزبي وعبد الله بن محمد بن زريق وعبد الله بن أحمد بن سلامة وغيرهم... .

أراد كنز الدولة هذا أن يعيد ملك الفاطميين فجمع حوله عددا كبيرا من السودان وتقدم بجيوشه حتى بلغ مدينة قوص، وهناك لقيه الملك العادل أخو صلاح الدين في جيش كثيف سنة ٥٧٠ هـ هزم كنز الدولة وتفرق عنه السودان وهرب أكثرهم إلى بلاد النوبة فاستقروا في السودان ولم يعودوا إلى مصر.. وفي كتاب صبح الأعشى رسالة بقلم القاضي الفاضل في ذكر هذا الانتصار وما لقيه جيش صلاح الدين من عناء ثم من انتصار في هذه الموقعة فليرجع إليها الباحثون<sup>(١)</sup>..

وفي هذه الموقعة أنشد النظام المصري جبرائيل بن ناصر يمدح الأيوبيين قائلا:

ومن ذا يطيق الترك في الحرب إنهم  
حماة كماء كالضراغم، خيلهم  
ومنها:

وتخفى نجوم الجوّ منه القساطل  
من أيدي الجياد المنعلات مشاعل  
أفراع إلى أوكارهن جوافل  
لهم في أعاديهم قنًا ومناصل  
بروق تلالا فيه والدم وابل  
بجيش يضيع الليل فيه إذا سرى  
إذا ما خبت فيه المشاعل عاضها  
وتطرد الرايات فيه كأنها  
فما لاح ضوء الصبح حتى تحكمت  
كأن مثار النقع سحبٌ وبيضهم

(١) الإدقوى: الطالع السعيد ص ٦٦.

(٢) صبح الأعشى ج ٦ ص ٥٠٦.

ومنها :

مذاهب تعيى غيركم ومداخل  
وحليتموها وهى قبل عواطل  
عواتقنا أغمادها والحمائل  
لها من دمء المارقين خلاخل<sup>(١)</sup>

وله قصيدة أخرى فى نفس الموقعة وفيها يقول<sup>(٢)</sup> :

فيطرح جبلى على كاهلى  
يخيّبها طمع العاقل  
لأعشق من عشقه قاتلى  
أفوز من الحب بالطائل  
حمى وسلام على راحل  
فيصغى إلى عذل العاذل  
بها يعمل السحر فى بابل  
من الوجد فى شغل شاغل  
تعلفت بالشبح المائل

وجودوا فلا خير فى باخل  
ولو أننى منه فى باطل  
شكوت إلى الملك العادل  
من العدل فى منهج سابل

وحرب كحرب بنى وائل  
يغير على الشرك بالساحل

لكم يا بنى أيوب فى البأس والندى  
ألنتم لنا الأيام من بعد قسوة  
وقلدتمونا البيض تثقل بالحلى  
ضربنا بها أعداءكم فجيادنا

أما ملّ من عدلى عاذلى  
لقد أطمع النفس فى سلوة  
ومن غير هذا الهوى إننى  
أحب فأقتل نفسى فلا  
ولى كل يوم وقوف على  
متى يسأم القلب من هجركم  
ويبطل سحر الجفون التى  
ويخلو فؤاد امرئ لم يزل  
متى ما وجدت لكم وحشة  
ومنها :

صلوا واعطفوا وارحموا وأحسنوا  
فلمست بتارك حق الهوى  
ولكن إذا مضى جوركم  
مليك مشى الناس فى عصره  
ومنها :

أقام الجهاد على سوقه  
ففى كل يوم له جحفلٌ

(١) العماد الأصفهاني: الخريدة ج ٢ ص ١٤٠.

(٢) نفس المرجع ص ١٤١.

ويقول أبو الحسن بن الذروي يهنئ السلطان صلاح الدين بالانتصار في هذه المعركة:

فقدم العزم فإذا مبتداه  
واسحب ذيول الجيش حتى ترى  
سواك من ألقى عصاه بها  
عليك بالروم وضع صاحب التا  
فقد غدت ابربم في ملكه  
لابد للنوبة من نوبة  
تظل من نوبة منسوبة  
تكسو الغزاة القاطنى أرضها  
سود وتحمر الظبا حولها  
لله جيش منك لا ينثنى  
ما بين عقبان ولكنها  
آساد حرب فوق أيديهم  
تقلدوا الأنهار واستلأموا ال

يقصر عن ملك الأرض منتهاه  
أنجمه طالعة عن دجاءه  
قناعة لما استقرت نواه  
ج إذا شئت وتوران شاه  
تبرم أمراً فيه كبت العداه  
ترضى لسخط الكفر دين الإله  
لعزمة كامنة فى أناه  
ما نسجت للحرب أيدي الغزاه  
كأعين الرمد بدت للأساه  
إلا بنصل دميت شفرتاه  
خيل وفرسان كمثل البزاه  
أساور الطعن فهم كالحواه  
غدران فالنيران تجرى مياه<sup>(١)</sup>

ويروى ابن الأثير أن جماعة من الشيعة فى مصر ثاروا سنة ٥٨٤ هـ بالقاهرة ونادوا ليلاً بشعار الشيعة: يا آل على يا آل على، وسلكوا الدروب ينادون الناس ظناً منهم أن أهل البلد يلبون دعوتهم ويخرجون معهم لإعادة الدولة العلوية وإخراج من كان محبوساً فى القصر من أسرة الفاطميين، ولكن لم يلتفت إليهم أحد من المصريين ولا أعارهم سمعه، فلما رأوا ذلك تفرقوا ثم أخذوا، وكتب بذلك إلى صلاح الدين فأهمه أمرهم وأزعجه<sup>(٢)</sup>، وفى أواخر القرن السابع فى سنة ٦٩٧ هـ ظهر شخص فى الصعيد ادعى أنه داود بن العاضد الفاطمى، ودعا لنفسه فاستجاب له عدد كبير من أهل الصعيد ومدحه بعض الشعراء ولكن حركته فشلت.

نتبين من ذلك أن الأيوبيين لم يستطيعوا أن ينتزعوا العقيدة الفاطمية من نفوس المصريين دفعة واحدة، وأن أثر الدولة الفاطمية ظل فى مصر بعد انقراض هذه الدولة الشيعية.

(١) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ٢٠٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل: حوادث سنة ٥٨٤ هـ.